

المطلب الثالث:

المناداة والمناجاة والإسماع لا يكون إلا للأصوات.

أ- المراد بالمناداة والمناجاة لغة:

المراد بالمناداة لغة: من النداء، والنداء لغة الصوت، يقال: ناداه ونادى به مناداة أي صاح به، والندى: بعد الصوت، ورجل ندى الصوت: بعيد، والإنداء: بعد مدى الصوت، والنداء: الدعاء بأرفع الصوت^(١).

المراد بالمناجاة لغة: من النجوى، والنجوى: التسارّ بين اثنين بحيث لا يسمعه غيرهم، يقال: النجى على وزن فعيل: المسار، جاء في لسان العرب: "المناجى: المخاطب للإنسان والمحدث له... والنجوى والنجى: المتسارّون"^(٢)، جاء في معجم مقاييس اللغة: "النون والجيم والحرف المعتل أصلان، يدل أحدهما على كشط وكشف، والآخر على ستر وإخفاء"^(٣).

ب- المراد بالمسألة:

أورد ابن النجار هذه المسألة في كتابه^(٤) وأراد بها مسألة مشهورة في علم العقيدة وهي اتصاف الله تعالى بالكلام، ولاشك أن أهل السنة يعتقدون أن الله يتكلم بكلام حقيقي متى شاء، كيف شاء، بما شاء، بحرف وصوت لا يماثل أصوات المخلوقين، وأنه صفة ذاتية لله من حيث النوع صفة فعلية له من حيث الأفراد^(٥)، كما أنه صفة قائمة به لا تقوم بغيره، وكلامه مسموع بالآذان حقيقة من غير توهم، والقرآن الكريم الذي بين أيدينا هو بعينه كلام الله تعالى على الحقيقة منه بدأ وإليه يعود، كما أن الحرف والصوت

(١) انظر: لسان العرب (٣١٥/١٥)، القاموس المحيط (١٧٢٤).

(٢) لسان العرب (٣٠٨/١٥)، وانظر: القاموس المحيط (١٧٢٣).

(٣) معجم مقاييس اللغة (٣٩٧/٥).

(٤) انظر: شرح الكوكب المنير (٨٦/٢).

(٥) يراد بالنوع: الكلي المقول على كثيرين مختلفين بالعدد في جواب ما هو، وأما الأفراد فيراد بها: ما يقابل الزوج وهو ما يتناول شيئاً واحداً دون غيره، انظر: المعجم الفلسفي (١٣٨/٢، ٥١١).

ثابتان لله تعالى بدلالة الآيات الدالة على مناداته سبحانه في الدنيا والآخرة، ومناجاته وتكليمه عباده^(١).

أما ما دل على مناداته فمنه قوله تعالى: {قَالَ يَا إِبْرَاهِيمُ أَتَعْبُدُ لِلَّذِينَ لَا يُلَاقُونَكَ بِشَيْءٍ وَلَهُمْ أَشْرَاقٌ} (٢)، جاء في تفسير الآية ما يأتي: "قال تعالى هل أتاك يا رسولنا حديث موسى بن عمران، إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى، أي بالواد المطهر المبارك المسمى طوى، ناداه فأعلمه أولاً أنه لا إله إلا هو وأمره بعبادته"^(٣).

ومن الأدلة قوله تعالى: {وَلَقَدْ نَادَيْنَاكَ بِالْأَلْفِ مِائَةِ نَادٍ فَاسْتَجَبْتَ} (٤)، قال القرطبي رحمه الله في تفسير الآية: "نُودِيَ: أي ناداه الله"^(٥).

ومن الأدلة قوله تعالى: {وَلَقَدْ نَادَيْنَاكَ بِالْأَلْفِ مِائَةِ نَادٍ فَاسْتَجَبْتَ} (٦)، جاء في الجامع ما يأتي: "أي كما لم تحضر جانب المكان الغربي إذ أرسل الله موسى إلى فرعون، فكذلك لم تحضر جانب الطور إذ نادينا موسى لما أتى الميقات"^(٧).

ومنها قوله تعالى: {وَلَقَدْ نَادَيْنَاكَ بِالْأَلْفِ مِائَةِ نَادٍ فَاسْتَجَبْتَ} (٨)، قال القرطبي: "قوله تعالى: {وَلَقَدْ نَادَيْنَاكَ بِالْأَلْفِ مِائَةِ نَادٍ فَاسْتَجَبْتَ} أي يناديهم الله يوم القيامة هؤلاء المشركين"^(٩).

(١) انظر ماسبق في: شرح العقيدة الطحاوية (١٣٧، ١٤٦)، النونية (٢٨-٤١)، مجموع الفتاوى (٥٨٤/١٢-٥٨٦)، (٥٢٧/٦)، مجموع الرسائل (٣٨٨/٣)، خلق الأفعال (١٤٩)، درء التعارض (٣٨/٢)، كتاب السنة (٢٨٠/١)، الرد على الجهمية (٨٨)، مجلة جامعة الإمام (١٧/٢٥)، مجلة جامعة الإمام (١٥/٢٧).

(٢) سورة النازعات الآية (١٦).

(٣) أيسر التفاسير (٦١٥/٤).

(٤) سورة النمل الآية (٨).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٥٨/١٣).

(٦) سورة القصص الآية (٤٦).

(٧) الجامع لأحكام القرآن (٢٩٢/١٣).

(٨) سورة القصص الآية (٦٥).

ومن السنة حديث عبدالله بن أنيس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان)^(٢).

وأما ما دل على مناجاته فدل عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ الْأَعْيُنَ وَيَا أَيُّهَا الْقُلُوبَ الْبَاطِنَةَ أَشْهَدُ بِمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ﴾^(٣)، جاء في الجامع: "وَنَادَيْنَاهُ: أي كلمناه ليلة الجمعة... وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا... أي كلمناه من غير وحي"^(٤).

ومن السنة حديث ابن عمر عندما سأله رجل: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟، قال سمعته يقول: (يادي المؤمن يوم القيامة من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه فيقول: هل تعرف؟، فيقول: أي رب أعرف، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم، فيعطى صحيفة حسناته، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على الله)^(٥)، قال ابن حجر: "المراد بها هنا المناجاة التي تقع من الرب سبحانه وتعالى يوم القيامة مع المؤمنين"^(٦).
فما ورد في الكتاب والسنة يدل وبوضوح كامل أن الله تعالى يتصف بالكلام على ما يليق به سبحانه، وأن الحرف والصوت ثابتان لله عز وجل، لأن الله سبحانه ينادي ويناجي، والمناداة والمناجاة لا تكونان إلا لصوت مسموع.

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣٠٣/١٣).

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُ الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ﴾.

(٣) سورة مريم الآية (٥٢).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١١٤/١١).

(٥) الحديث رواه البخاري في كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، الحديث رقم (٢٤٤١)، ورواه في كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ واحد الأشهاد شاهد، مثل صاحب وأصحاب، الحديث رقم (٤٦٨٥)، ورواه في كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه، الحديث ذي الرقم (٦٠٧٠)، ورواه في كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع أهل الجنة، الحديث ذي الرقم (٧٥١٨)، ورواه مسلم في كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، الحديث ذي الرقم (٦٩٣٩).

(٦) فتح الباري (٥٩٩/١٠).

يقول ابن عقيل رحمه الله: "النداء لا يكون إلا صوتاً"^(١)، وجاء نحو ذلك عن ابن قدامة^(٢).

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله: "لا يطلق النداء على ما ليس بصوت لا حقيقة ولا مجازاً"^(٣).

وما سبق بشأن النداء يصدق على المناجاة إذ هي بصوت لكنه منخفض، وأما المناداة فبصوت مرتفع^(٤)، قال ابن حجر: "النجوى: هي ما تكلم به المرء يسمع نفسه ولا يسمع غيره، أو يسمع غيره سرا دون من يليه"^(٥).

إذاً، عند إرادة إثبات صفة الكلام الحقيقي لله ألا يقال: إن ما اتصف بالصوتية المسموعة من المناداة والمناجاة يعد لازماً للكلام الحقيقي؟، فإن قلتم نعم فقد أثبتتم ما نعيه، وإن قلتم لا فقد نفيتم ما هو معلوم للناس بالضرورة، وبهذا يفترق أهل السنة عن غيرهم من الأشاعرة والماتريديين الذين قالوا: إن كلام الله تعالى نفسي ليس بلفظي، وإنه شيء واحد ليس له بعض ولا عدد ولا نهاية له ولا بداية، وإنه المعنى القائم بذات المتكلم، فهو المعنى الذي يعده المتكلم في نفسه ثم يعبر عنه بهذه الألفاظ، وهي ليست بكلام، وإجراؤها على اللسان ليس بتكلم، بل هي عبارات عن الكلام، فتسمية الألفاظ كلاماً إنما هو لأجل دلالتها على الكلام، كما قالوا بأن الله تعالى قد خلق صوتاً معروفاً فسمع جبريل كلامه بذلك الصوت، فحفظه جبريل وعلمه النبي ﷺ، فكلام الله قديم ليس بحرف ولا صوت، ولذا فلم يكلم الله تعالى موسى، بل خلق الله صوتاً مخلوقاً في الشجرة فسمع موسى حروفاً وأصواتاً مخلوقة، وقولنا: موسى كلم الله فيراد به: أنه سمع صوتاً دالاً على كلام الله دون واسطة الكتاب والملك^(٦).

(١) مسألة القرآن (٧٢).

(٢) انظر: البرهان في بيان القرآن (٨٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٥٣١/٦).

(٤) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود (١٩/٢٧).

(٥) فتح الباري (٥٩٩/١٠).

(٦) انظر: كتاب التوحيد للماتريدي (٥٨)، العقائد النسفية (٥٣)، المواقف (٢٩٣)، الإرشاد (١٠٧)، أصول الدين للبغدادي (١٠٦)، أصول الدين للبزدوي (٦١)، شرح الإحياء للزبيدي (٣٠، ١٤٤/٢)، بحر الكلام (٢٩)، البداية

والأشاعرة ومن وافقهم عندما تنبوا الرأي السابق في أمر الكلام استندوا على عدة شبه اكتفي منها بالشبهتين الآتيتين:

الشبهة الأولى: لا يمكن للكلام أن يتحقق فيه وصف الكلام إلا متى وجدت فيه لوازمه من اللسان، والحنجرة، والشفتين، وجرمين يخرج من خلالهما هواء الحروف والأصوات، وكل ما سبق يتره الله عنه^(١).

وأجيب عن الشبهة السابقة بأن الله تعالى قال: {

{^(٢)، وقال: {

{^(٣)، فقرر الحق سبحانه نطق الجلود والجوارح، ومن المعلوم عدم لزومية

الشفتين واللسان وغيرها من الأعضاء للنطق بدليل تسبيح الطعام بين يدي النبي ﷺ^(٤) وحنين الجذع له^(٥)، فقد نطقت من غير لسان أو حنجرة، ولا لزم لها وجود جرمين يجرم من بينهما الهواء، فإذا صح ذلك في ما سبق، فالله سبحانه يتكلم كيف يشاء في غير حاجة إلى أن يقول بجوف وفم وشفتين ولسان^(٦).

ولابد من تذكر حقيقة الصوت كي يكتمل الجواب، فالصوت هو ما تحقق سماعه، بغض النظر عن ماهية الآلة أو الآلات المحققة لوجود الصوت في الخارج، فمادام السماع متحققا فذاك يسمى صوتا، وما لم يتحقق سماعه فليس بصوت^(٧)، فلا يلزم إذاً للصوت

للصابوني(٦٦)، إشارات المرام(١٨١)، الفقه الأكبر مع الشرح(٤١)، نظم الفرائد(١٦)، رسالة في الكلام النفسي للإيجي الورقة(١).

(١) انظر: حاشية العصام(١٨١)، الرد على الجهمية(١٠٦)، الماتريدية وموقفهم من الأسماء والصفات(١٤٣/٣)، مجلة جامعة الإمام(٣٦/٢٧).

(٢) سورة فصلت الآية(٢١).

(٣) سورة فصلت الآية(٢٢).

(٤) الحديث رواه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، الحديث ذي الرقم(٣٥٧٩).

(٥) الحديث رواه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، الحديث ذي الرقم(٣٥٨٣).

(٦) انظر: الرد على الجهمية(٦٨)، مجلة جامعة الإمام(٣٧/٢٧).

(٧) انظر: الرد على من أنكر الحرف والصوت(١٦٧).

وجود الحنجرة واللسان وغيرها من الآلات، ولذا فلا تصح لكم الشبهة التي أوردتموها لإثبات الكلام النفسي.

وعند القول بأن ما تحقق سماعه يسمى صوت وما لم يتحقق سماعه لا يسمى بذلك، يبرز لنا أمر الجواز العقلي في المسألة الذي أورده الفتوحى إذ يقول الآتي: "المناداة والمناجاة من وراء حجاب لا ترجمان بينهما، وإسماع البشر حقيقة لا يقع إلا للأصوات، ومن زعم أن غير الصوت يجوز في العقل أن يسمعه من كان على هذه البيئة التي نحن عليها احتاج إلى دليل"^(١)، ولا يمكن تجويز ذلك في العقول لعلمها أن الصوت هو المسموع الوحيد، ولا يمكن لغيره أن يسمع، فلا حاجة لإقامة الدليل لانتفاء الأمر شرعا: من حيث ورود النص الدال على أن مناداة الله لموسى إنما كانت بصوت، "ولم يرد عن الله ولا رسله ولا عن غيرهم من السلف أنه من الله غير صوت"^(٢)، وعقلا؛ لأنه لا يمكن عقلا لغير الصوت أن يسمع.

الشبهة الثانية: قالوا: الحروف والأصوات أعراض وحوادث، فلو أثبتنا الكلام اللفظي لله، لزم كونه تعالى عملا للحوادث والأعراض^(٣).

والجواب عن الشبهة السابقة أن يقال إن "لفظ الأعراض والحوادث لفظان مجملان، فإن أريد بذلك ما يعقله أهل اللغة من أن الأعراض والحوادث هي الأمراض والآفات كما يقال: فلان قد عرض له مرض شديد وفلان قد أحدث حدثا عظيما... فهذه من النقائص التي يتره الله عنها، وإن أريد بالأعراض والحوادث اصطلاح خاص، فإنما أحدث ذلك الاصطلاح من أحدثه من أهل الكلام، وليست هذه لغة العرب ولا لغة أحد من الأمم، لا لغة القرآن ولا غيره، ولا العرف العام ولا اصطلاح أكثر الخائضين في العلم، بل مبتدعو هذا الاصطلاح: هم من أهل البدع المحدثين في الأمة الداخلين في ذم النبي ﷺ"^(٤).

(١) شرح الكوكب المنير (٨٦/٢).

(٢) شرح الكوكب المنير (٨٦/٢).

(٣) انظر: شرح العقائد النسفية (٥٥)، حاشية العصام (١٨٤)، المسائرة (٨٤)، الماتريدية وموقفهم من الأسماء والصفات (١٤٣/٣)، مجلة جامعة الإمام (٣٧/٢٧).

(٤) مجموع الفتاوى (٩٠/٦).

ثم يقال: زعمتم أن الحروف والأصوات أعراض وحوادث يتتره الله تعالى عنها، فيقال لكم: ألم تقولوا إن الله تعالى ذو قدرة وإرادة، ألا ينطبق عليهما ما ذكرتموه عن الأعراض والحوادث؟، فإن قلتم لا فنحن نقول ذلك في الكلام^(١).

ومما سبق كله يتقرر لنا صحة منهج أهل السنة في إثبات صفة الكلام لله سبحانه على النحو الذي يليق به.

بناء على ما سبق أشير إلى أن الأصوليين عندما استعرضوا مباحث القرآن أوردوا مسألة الكلام فقرر بعضهم منهج الأشاعرة، حيث قال الغزالي رحمه الله: "الكلام اسم مشترك: قد يطلق على الألفاظ الدالة على ما في النفس، تقول: سمعت كلام فلان وفصاحته، وقد يطلق على مدلول العبارة، وهي المعاني التي في النفس"^(٢).

وقال: "الكلام عندنا معنى قائم بالنفس على حقيقة وخاصية يتميز بها عما عداه" (٣).
وقال اللامشي: "كلام الله تعالى صفة أزلية قائمة بذات الله، ليس من جنس الحروف والأصوات وإنه واحد غير متجزئ ليس بعبري ولا سوري ولاعربي، إنما العبرية والسورية (٤) والعربية عبارات عنه ودلالات عليه، وهذه العبارات حروف وأصوات وهي محدثة مخلوقة في محالها وهي الألسنة واللهاوت، وإنما تسمى قرآنا ويسمى كلام الله تعالى لتأدي كلام الله تعالى بها" (٥).

وقال الرازي: "اعلم أن لفظة: الكلام عند المحققين منا تقال بالاشتراك على المعنى القائم بالنفس، وعلى الأصوات المتقطعة المسموعة"^(٦).

(١) انظر: مجلة جامعة الإمام (٣٨/٢٧)، الرسائل المنيرية (١٨١).

(۲) المستصفي (۴/۲).

(٣) المنحول (١٦٣).

٤) اللغة السوروية القديمة هي اللغة التي تسمى بـ: السوروية الآرامية أو السريانية، وكانت لغة التواصل المكتوب في الشرق الأدنى، بدءاً من القرن الثاني للميلاد وحتى القرن السابع انظر:

<http://ar.wikipedia.org/wiki/%D%A%D%B%D%A>

وقد قيل إن سبب تسميتها بالسريانية أن الله تعالى قد علمها آدم سرا عن [A%D](#)،

الملائكة، انظر: الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي (٢٥٣).

(٥) كتاب في أصول الفقه (٣٧).

٦) المحصول (١٧٧/١)، وانظر: التحصيل (١٩٣/١).

وقال الآمدي: "الكتاب هو الكلام المعبر عن الكلام النفساني"^(١).

وتقريرهم بالكلام النفسي إنما هو امتداد للمعتقد الأشعري الذي تبناه، وقد تبين لنا فيما مضى صحة قول أهل السنة بإثبات الكلام اللفظي لله سبحانه، كما سبق لنا إيراد بعض الشبه في الموضوع والجواب عنها بحمد الله.

ت - ملحوظات عامة:

١ - في هذه المسألة اختلفت الكيفية المعتادة في إيراد الجواز، فبعد أن كان المؤلف والمعتاد إيراد الجواز كحكم ودليل لصحة القول في المسألة تابعا لأمر الوقوع، جاء الجواز هنا كرد لمن يرى صحة سماع غير الصوت، فعبارة الفتوح رحمة الله ونصها: "ومن زعم أن غير الصوت يجوز في العقل أن يسمعه من كان على هذه البيئة التي نحن عليها احتاج إلى دليل"^(٢)، تعني: إننا نحتاجكم بالجواز العقلي، فأوردوا مستندكم حوله، وليس ممكنا لكم ذلك، فضعف جانب قولكم إذاً.

وهذا الإيراد ليس مستهجنا، لأن الأركان الثلاثة الخاصة بالجواز موجودة، ثم هو جواز صحيح هدف منه موافقة الشرع وهذا معنى طيب، فلما تحققت وتقيأت أوضاع الجواز للورود ورد، وغاية ما اختص به هو تغاير آلية الإيراد لا أكثر.

٢ - غير خاف كون هذه المسألة عقدية، وورودها في أصول الفقه متعلق ببحث الأصوليين لموضوع الكتاب من حيث هو دليل يستقى منه الحكم، وللكتاب مسائله المتعددة، كان منها موضوع كلام الله تعالى، فأصل المسألة عقدي، وبحثه في الأصول تبع لمبحث الأدلة، ثم هو تبع لاجتهادات أهل العلم، الذين أوردوه ضمن المسائل الأصولية، ويمكن القول بأن الجواز العقلي متى وجد المحل والعقل والإمكان أمكن له الوجود بغض النظر عن ماهية الموضوع والفن الوارد فيه.

٣ - مما أشكل لديّ التساؤل الآتي: هل يقال للممتنعة العقلية والشرعية إنها ممتنعة خاصة؟، لا توجد إجابة حاضرة لعدم وجود من قال بهذا - حسب ما ظهر لي -

(١) الإحكام (١/١٣٨).

(٢) شرح الكوكب المنير (٢/٨٦).

وهي تحتاج إلى نظر وتأمل، لكنها ممكنة بالنظر إلى أن الممنوع مراتب، كما أن الممكن مراتب، وما جاز في الممكن يمكن له الجواز في الممنوع لعدم الفارق، فالعقل يجمع الكل، ومن هنا كانت المسألة محتملة جداً ومحتاجة لمزيد بحث.

٤- الجواز العقلي الوارد ممكنة عامة وظفت لتحقيق الآتي:

أ- تقرير رأي أريد به نفي السماع من غير الصوت.

ب- المجادلة والحجاج لمن أثبت سماعاً لغير الصوت.